## السلطان عبدالحميد

## يتصدى لأطماع اليهود في فلسطين

للإسلام رجال تظل بصماتهم تشع نوراً على التاريخ الإسلامي وتمر السنين إثر السنين وذكراهم حية بمواقفهم الفريدة وحينما تعتري الأمة سنوات عجاف تتذكر أيام الرخاء.

وحينما يندر الرجال الشوامخ يتذكر الناس القمم العوالي في تاريخ الأمة.

سيذكرني قومي إذا جد جدهم

وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

وفي عصرنا الكئيب الذي خلا من الرجال يتذكر الناس صلاح الدين وقطز ويهتفون باسمهم في كل مناسبة كأنهم أحياء شاهرين سيوفهم لتخليص القدس من اليهود وللذود عن الحمى المستباح والكرامة المهدرة.

ولا عجب حينما دخل أحد قادة الصليبية الحديثة المنتصرة أرض الشام وقف على قبر صلاح الدين الأيوبي ها قد عدنا يا صلاح الدين.

وفي عصرنا الحديث نبكي على الخلافة الإسلامية الغابرة والفردوس المفقود والله لقد كنا أعزة فحاق بنا الذل والهوان بعد القضاء على دولة الخلافة لقد كانت الخلافة المظلة التي تظللنا والراية التي تجمعنا والراعي الذي يحمينا من الذئاب لقد كانت الأمة الإسلامية التي تجمع الأجناس المختلفة حزمة تحزمها الخلافة وعقد تنظم حباته فلما قضى على الخلافة

تفرقت الحزمة وانفرط العقد وأصبحت الدولة الإسلامية الواحدة دولاً متعددة والأمة الإسلامية غدت شيعاً وأحزاباً مما سهل وساعد اليهود على إغتصاب فلسطين.

ولقد حاول اليهود أثناء قيام الخلافة أن يضعوا أقدامهم في فلسطين في عهد الخليفة المسلم حامي فلسطين وبيت المقدس فكان الرجل مخلصاً لدينه وللأمانة التي حملها الله إياها ولم يفرط في شبر واحد من فلسطين لليهود وكان يقف لهم بالمرصاد وكان عينا ساهرة تحمي القدس وفلسطين كان يعتبر كل شبر من أرض الأمة الإسلامية أمانة في عنقه والدفاع عنها فرض عين والتفريط فيها خيانة تستوجب عقاب الله فحينما حاول الدكتور هيرتزل أن يفاوضه على أرض فلسطين قال قولته الخالدة:

(إنصحوا الدكتور «هرتسل» بألا يتخذ خطوات جدية في هذا الموضوع، فإني لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من أرض فلسطين.. فهي ليست ملك يميني... بل ملك الأمة الإسلامية.. لقد جاهد شعبي في سبيل هذه الأرض ورواها بدمه.. فليحتفظ اليهود بملايينهم... وإذا مزقت دولة الخلافة يوماً فإنهم يستطيعون آنذاك أن يأخذوا فلسطين بلا ثمن..

أما وأنا حي فإن عمل المبضع في بدني لأهون علي من أن أرى فلسطين قد بترت من دولة الخلافة وهذا أمر لا يكون. إني لا أستطيع الموافقة على تشريح أجسادنا ونحن على قيد الحياة).

السلطان عبدالحميد الثاني

أستانبول ١٩٠١م

وتكررت محاولات اليهود لدى السلطان عبدالحميد الثاني رحمه لله لتثبيت أقدامهم في فلسطين.

يروي الدكتور موفق بني المرجه في بحثه القيم «صحوة الرجل المريض» فيقول في الفصل الأول من الكتاب بعنوان حفاظ عبدالحميد على فلسطين والديار الإسلامية ص٢١٣ وما بعدها.

«وقد روى الشيخ طه الولي[1] أنه زار، مع أخيه فؤاد الولي ـ قبل وفاته ـ في ١١ أيلول (سبتمبر ١٩٦٧) الشيخ علي شيخ العرب، في بيته بطرابلس الشام بلبنان، واستمعا منه إلى هذه الرواية:

كان ذلك عام ١٩٠١م ونحن في قصر يلدز باستانبول، وإلى جانبي الشيخ محمود الجيزاوي إمام جامع العرب في دار السعادة، وإذا بثلاثة من اليهود يطلبون مقابلة مولانا أمير المؤمنين السلطان عبدالحميد الثاني فاستقبلهم تحسين باشا رئيس الكتاب وهم:

ـ مزراحي قراصو مدير أحد البنوك.

ـ جاك ولم أعد أذكر باقي اسمه.

ـ ليون ولم أعد أذكر باقي اسمه.

وأصر على معرفة ما يريدون لينقله حرفياً للسلطان فأبدوا استعدادهم لـ:

ـ الوفاء بجميع الديون المستحقة على الدولة العثمانية.

---

(١) الشيخ طه الولي، عالم وبحاثه لبناني كان يعمل أمينًا لمكتبة العامة بوزارة الأوقاف في دولة الكويت.

- بناء أسطول لحماية الدولة.

- تقديم قروض بخمسة وثلاثين مليون ليرة ذهبية، دون فائدة، لانعاش مالية الدولة واغناء مواردها.

مقابل:

- إباحة دخول اليهود إلى فلسطين في أي يوم من أيام السنة للزيارة.

- السماح لليهود بانشاء مستعمرة ينزل بها أبناء جلدتهم قرب القدس، أثناء الزيارة.

وحينما نقل تحسين باشا ما سمعه إلى السلطان أجابه: قل لهؤلاء اليهود الوقحين:

- إن ديون الدولة ليست عاراً عليها لأن غيرها من الدول كفرنسا مدينة ولا يضيرها ذلك.

- إن بيت المقدس الشريف افتتحه للإسلام أول مرة سيدنا عمر رضى الله عنه ولست مستعداً أن أتحمل تاريخياً وصمة بيع الأراضي المقدسة لليهود وخيانة الأمانة التي كلفني المسلمون بالحفاظ عليها.

- ليحتفظ اليهود بأموالهم، فالدولة العلية لا يمكن أن تحتمي وراء حصون بنيت بأموال أعداء الإسلام.

وأخبرهم أن يخرجوا وألا يحاولوا مقابلتي أو الدخول لهذا المكان بعدها.

ويستمر الشيخ علي شيخ العرب في روايته فيقول: إن عبدالحميد أرسل بعد ذلك إلى ممدوح باشا ناظر الداخلية ليكلفه بالاتصال برؤوف باشا

متصرف القدس الشريف ليقوم بالتحري فوراً عن اليهود في فلسطين ولا سيما في القدس، بحيث لا يبقى منهم إلا الزائرون لمدة محدودة.

ويقول: إن اليهود نجحوا في استخدام جمعية «الاتحاد والترقي» التي تقنعت بها جماعة «الدونمة» وهم المتظاهرون بالإسلام من يهود أسبانيا، فاطاحوا بعبدالحميد عام ١٩٠٨ ولم تكن «المشروطية» غايتهم، بل أنهم قاموا برشوة بعض المشايخ للخروج في الشوارع والمناداة بـ «الارتجاعية» لإخراج السلطان ولدفع الاتحاديين للثورة، تمهيداً للتخلص من الإسلام نفسه. والمشروطية دعوة للعمل بالدستور وإباحة الحريات والارتجاعية دعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية وهي ما يعرف بالرجعية ولا تناقض بين الدستور والشريعة الإسلامية.

**يقول السلطان عبدالحميد في مذكراته:**

«ولدت في أمريكا دولة فتية قوية وكانت إسبانيا قد أخرجت من مستعمراتها. وانتظم يهود العالم، وسعوا - عن طريق المحافل الماسونية - للعمل في سبيل الحصول على «الأرض الموعودة»! وجاؤوا إليَّ بعد فترة وطلبوا مني أرضاً لتوطين اليهود في فلسطين مقابل أموال طائلة وبالطبع رفضت».

ويقول الأستاذ عبدالحميد حرب في كتابه مذكرات السلطان عبدالحميد في تعليقه على هذه الفقرة في هامش ص١٤١، ١٤٢، ١٤٣:

«وردت في مذكرات هرتزل معلومات مفصلة في هذا الموضوع، نشير إلى ثلاث منها توضح موقف السلطان عبدالحميد من قضية فلسطين:

الأولى: قال السلطان (عبدالحميد): إنه لن يتخلى أبداً عن القدس، فإن جامع عمر يجب أن يبقى بيد المسلمين دائماً. (مذكرات هرتزل، ص٢٩).

والثانية: إن الناس هناك (في إنجلترا) ينتظرون سقوط تركية (يقصد الدولة العثمانية، فتركيا لم تكن ظهرت بعد) الذي هو وشيك في نظرهم، إن خلاص السلطان (عبدالحميد) لا يكون إلا باتفاقه مع «تركيا الفتاة»، وقال (نيولنسكي): إنه قدم تقريراً للسلطان يتضمن هذه النصيحة، فقلت له (أي هرتزل): إنه الآن يجب أن يزيد هذه الحقيقة على البرنامج الذي قدمه للسلطان، وهي أن يساعد السلطان اليهود بأن يعطيهم قطعة الأرض التي يريدون، وهم بدورهم يصلحون أمره في البلاد ويثبتون ماليته ويؤثرون على الرأي العام ليقف إلى جانبه، (مذكرات هرتزل، ص٣٢).

والثالثة: قال السلطان (عبدالحميد) لصديقي (نيولنسكي): «إذا كان صديقك فانصحه أن لا يسير أبداً في هذا الأمر، لا أقدر أن أبيع ولو قدماً واحداً من البلاد، لأنها ليست لي، بل لشعبي. لقد حصل شعبي على هذه البلاد بإراقة دمه، وقد غذاها فيما بعد بدمائه أيضاً. وسوف نغذيها، بل لن نسمح لأحد باغتصابها منا. فليحتفظ اليهود بملايينهم، أما إذا سقطت الدولة (العثمانية) وتم تقسيمها فقد يحصل اليهود على فلسطين بلا مقابل. إننا لن نقسم هذه الدولة (العثمانية) إلا على جثتنا، ولن أقبل تشريحنا لأي غرض كان» (مذكرات هرتزل، ص٣٥).

وفي موقف السلطان عبدالحميد من اليهود وموقف اليهود منه في مسألة فلسطين، يقول المؤرخ التركي جمال قوطاي:

(بعد المؤتمر الصهيوني الثالث في زيورخ عام ١٨٩٦م، اقترح اليهود

على السلطان عبدالحميد أن يبيع لهم «المزارع السلطانية» الواقعة على ساحل فلسطين أو تأجيرها لهم لمدة ٩٩ سنة مقابل «ذهباً يعادل ثلاث ميزانيات عثمانية».

ورفض السلطان العثماني (عبدالحميد) الاقتراحين، وكان المتحدث باسم الوفد الصهيوني المحامي اليهودي السلانيكي إيمانويل قراصو. وبعد الرفض السلطاني خرج الوفد فقال هذا المتحدث باسم الوفد اليهودي، لتحسين باشا كبير أمناء القصر السلطاني:

ـ سآتي هنا مرة أخرى.. لكن سيكون دوري في هذه المرة غير دوري الآن... وحدث بالفعل أن كان إيمانويل قراصو ضمن وفد «الاتحاد والترقي» الذي أبلغ السلطان عبالحميد بقرار خلعه).

انظر جمال قوطاي، المرجع السابق، ج١ ص١٤١.

أما طلعت باشا زعيم «الاتحاد والترقي» فيكتب في مذكراته عن موقف «الاتحاد والترقي» من اليهود، في صراحة تامة، ما يلي:

* كان «الاتحاد والترقي» أمل اليهود، هذا صحيح. ولقد بدأ اليهود في عهد توليتي وزارة الداخلية للمرة الأولى يتجمعون في فلسطين خاصة هؤلاء اليهود الذين أجبروا على الهجرة من روسيا. أخذ اليهود المهاجرون يشترون الأراضي في فلسطين بواسطة اليهود من التبعة العثمانية.

* جاء ٥٠٠٠٠ يهودي إلى أرض فلسطين خلال سنة واحدة من يناير ١٩٠٨م إلى مارس ١٩٠٩م.

* كتب علي أكرم بك المتصرف السابق والذي عين والياً على بيروت،

إلى وزارة الداخلية بخطورة إسكان اليهود. أما صبحي بك الذي حل محله فكان مؤيداً لإسكان اليهود ببعض الشروط، فالخزانة خاوية على عروشها وليس هناك في الدولة من دخل. واليهود القادمون معهم المال وأصحاب مؤسسات متكاملة ليس في المال فقط، بل وفي العلم والتجارة والزراعة والفنون وسيكونون مخلصين للدولة إذا منحوا فرصة العمل الحر. انظر: مذكرات طلعت باشا، ج٣ ص١٢٨٢.

وعن نية قادة «الاتحاد والترقي» - بعد خلعهم للسلطان عبدالحميد - في إقامة دولة يهودية في فلسطين، يقول طلعت باشا صاحب الكلمة العليا في جمعية «الاتحاد والترقي» وفي حكومتها أيضاً:

«سألني نافع باشا مندوب حلب في أول مجلس نيابي للمبعوثان عام ١٢٩٣م (١٨٧٦م) قائلاً:

- هل ترى أن من الممكن إقامة دولة يهودية (في فلسطين)؟

- فأجبته بقولي: ليس ممكناً فقط، بل إني أعتبر هذا أمراً مُقدراً».

طلعت باشا، مذكرات طلعت باشا، المصدر السابق ج٣ ص١٢٩٧.

وقد بعث السلطان عبدالحميد برسالة إلى شيخه محمود أبو الشامات (شيخ الطريقة الشاذلية في دمشق) بعد خلعه من الخلافة، نشرتها مجلة «العربي» وجاء فيها:

(إنني لم أتخل عن الخلافة الإسلامية لسبب ما سوى أنني بسبب المضايقة من رؤساء جمعية «الاتحاد والترقي» المعروفة باسم (جون تورك) وتهديهم اضطررت واجبرت على ترك الخلافة.

إن هؤلاء الاتحاديين قد أصروا وأصروا علي بأن أصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة (فلسطين) ورغم إصرارهم فلم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف. وأخيراً وعدوا بتقديم ١٥٠ مائة وخمسين مليون ليرة انكليزية ذهبا فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية أيضاً وأجبتهم بهذا الجواب القطعي:

إنكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهباً فضلاً عن مائة وخمسين مليون ليرة انكليزية ذهبا فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعي.

لقد خدمت الملة الإسلامية والأمة المحمدية ما يزيد على ثلاثين سنة فلم أسود صحائف المسلمين آبائي وأجدادي من السلاطين والخلفاء العثمانيين.

لهذا لن أقبل تكليفكم بوجه قطعي أيضاً..

وبعد جوابي القطعي اتفقوا على خلعي وأبلغوني إنهم سيبعدونني إلى سالونيك فقبلت بهذا التكليف الأخير..[1]

وانتهت الاتصالات برفض السلطان عبدالحميد الثاني إقامة مأوى لليهود في فلسطين، وبذلك أصبح عبدالحميد في نظر هرتزل سلطاناً (ماكراً جداً خبيثاً جداً ولا يثق بأحد).

كان السلطان عبدالحميد يرى ضرورة عدم توطين مهاجرين يهود في فلسطين حتى يبقى العنصر العربي المسلم محافظاً على تفوقه الطبيعي فيها. وكان من رأي عبدالحميد أنه إذا ما سمح لليهود بالتوطن في فلسطين فإنهم سيستطيعون في وقت قليل جداً أن يجمعوا في أيديهم وسائل القوة

(١) صحوة الرجل المريض.

في المكان الذي يستقرون فيه، وفي هذه الحالة (نكون قد وقعنا قراراً بالموت على إخواننا في الدين) ويقصد الفلسطينيين.

وقال هرتزل: أنه يفقد الأمل في تحقيق أمالي اليهود في فلسطين وأن اليهود لن يستطيعوا دخول (الأرض الموعودة) طالما أن السلطان عبدالحميد قائماً في الحكم مستمراً فيه.

أما عبدالحميد فيعبر عن رأيه في الحركة الصهيونية وفي هرتزل بقوله:

(لا يريد الصهيونيون الاشتغال بالزراعة فقط في فلسطين، بل إنهم يريدون إنشاء حكومة لهم وانتخاب ممثلين سياسيين لهم، وإني أفهم جيداً معنى تصوراتهم الطامعة هذه، وإنهم لسذج إذا تصوروا أني سأقبل محاولاتهم هذه... إن هرتزل يريد أرضاً لأخوانه في دينه لكن الذكاء ليس كافياً لحل كل شيء).

وعن القدس يقول السلطان: (لماذا نترك القدس؟.. إنها أرضنا في كل وقت وفي كل زمان وستبقى كذلك فهي من مدننا المقدسة وتقع في أرض إسلامية، لابد أن تظل القدس لنا)[1].

وهكذا وقف السلطان عبدالحميد ضد مطامع اليهود وكان حجرة عثرة وعقبة كؤود في طريق هجرة اليهود إلى فلسطين والتمكين لهم في شبر واحد منها ناهيك عن إقامة دولة لهم فذلك أمر دونه الموت وقد قدم السلطان التضحيات الجسام حيث عزله ـ أعضاء الاتحاد والترقي وكلهم من اليهود والماسون.

---

(١) مذكرات عبد الحميد - د. محمد حرب.

وكان اليهود الروس قد استعانوا بغير أمريكا لبذل مساعيه عند السلطان عبدالحميد بالسماح لهم بالهجرة إلى فلسطين ولكن هذه المساعي باءت بالفشل لرفض السلطان عبدالحميد وكان ذلك سنة ١٨٨٢.

وكانت الهجرة اليهودية قد بدأت من روسيا القيصرية أثر قيام منظمة «عشاق صهيون» باغتيال القيصر الروسي اسكندر الثاني بالقنابل في ١٣ آذار (مارس) ١٨٨١م وحملة السلطات الروسية لتصفية اليهود بعدها.

وقد قبلت السلطات الروسية ايواء بعض اليهود الهاربين من روسيا لكن مطامع اليهود تطورت عقب المؤتمر الصهيوني الأول ببال في سويسرا[١].

وقد تمكنت حركة التهجير اليهودية (البيلوا) في عام ١٨٨٢م من إيصال ٢٠ مستعمراً يهودياً إلى فلسطين اعتبروا (رواد) الهجرة اليهودية وعملوا على تحويل عدة قرى عربية صغيرة نائية إلى مستعمرات صهيونية ولكنهم فشلوا في الزراعة فشلاً ذريعاً ولولا مساعدات البارون ادمون دي روتشيلد لماتوا جوعاً ومرضاً.

وقيل أيضاً أن السير موسى مونتفيوري خاطب إبراهيم باشا والي محمد علي على الشام ليسمح لهم بهجرة اليهود إلى فلسطين، وأبدى استعداده لشراء الأراضي اللازمة لاستيطان اليهود في فلسطين، ولكن إبراهيم باشا رفض هذا العرض.

وفي عام ١٨٩٦م اتصل هرتزل بدوق بادن الأكبر وطلب منه أن يحصل له على أذن لمقابلة مع قيصر المانيا، وشرح له الفوائد التي ستعود من هذا

---

(١) صحوة الرجل المريض.

المشروع، إذا تم تقسيم الدولة العثمانية في المستقبل القريب فسوف تقف الدولة التي تقام في فلسطين حاجزاً، وتستطيع أن تلعب دوراً في المحافظة على تركيا، وأن تسند السلطان بالمال إذا هو تخلى عن قطعة أرض لا قيمة لها عنده.

كما أثار القضية لدى قيصر روسية عن طريق دوق هس حمي القيصر.

وعندما أرسل السلطان عبدالحميد الثاني مندوباً سرياً لأوربا للاتصال بالأرمن اللاجئين بعد تشكيلهم اللجان ونضالهم للتحرر، عرض هرتزل مساندة اليهود في قضية الأرمن ـ كما جاء في مذكراته ـ مقابل خدمات مؤكدة للقضية الصهيونية، ولكن عبدالحميد رفض العرض.

****